موقف المستشرقين من بعض قضايا العقيدة

دكتور/ أحمد عبد الله الطيار *

المقدمة

الحمد لله رب العالمين أنزل الكتاب بالحق وهو يتولى الصالحين. والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خير خلقه وخاتم رسله سيدنا محمد المؤيد بالحق. اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحابته إلى يوم الدين... وبعد.

فمنذ نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ وأعداء الإسلام لا يدخرون وسعا ولا يملون من الطعن في القرآن والإسلام يثيرون الشكوك والشبهات محاولين النيل من عظمته . فأثاروا شبهاهم حول الإسلام . وبعض قضايا العقيدة وغير ذلك وأظهر المستشرقون أحقادهم وكراهيتهم للقرآن والإسلام فألصقوا بالإسلام ما هو منه برئ..

وهذه صفحات مختصرة لبيان بعض شبههم التي أثاروها حول قضايا العقيدة والرد عليها وفق منهج علمي صاف.. وهؤلاء الطاعنون أنى لهم أن ينالوا من القرآن العظيم في سموه وعظمته (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[١]

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ورد في الموسوعة البريطانية عدة شبه حول قضايا العقيدة ، منها:

١- الوحي في اللغة والشرع :

الوحي لغة : الإعلام بالشيء في خفية، أو الإعلام سرا ، ولذلك صار الإلهام يسمى وحيا . [٢]

وفيه أن الوحي بمعنى الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك . يقال ووحيت الكلام إليه وأوحيت ، ووحي وحيا .

وأوحى أيضا بمعنى كتب ، والوحي المكتوب والكتاب أيضا .

---

* أستاذ مشارك بقسم الدراسات الإسلامية ــ كلية الشريعة والقانون ــ الإمارات.

ويقـــول الألــو سي : الوحي أصله التفهم ، وكل ما فهم به شيء من الإلهام والإشارة والكتب فهو وحي .[٣]

ويقول الزجاج : الإيحاء بمعنى الإعلام على سبيل الخفاء .[٤]

ويقـــول الراغب أصل الوحي : الإشارة السريعة ، لتضمن السرعة قيل : أمر وحي، وذلك يكون بـــالكلام عـــلى سبيل الرمز والتعريض . وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وبأ شارة ببعض الجوارح ، وبالكتابة .[٥]

والذي نلاحظه أن الراغب وابن الأثير نبها على اعتبار أن السرعة في حقيقة الوحي .

وقد أغفل ابن منظور وصاحب تاج العروس ، لكنهما أفاضا في ذكر استعمال الوحي في السرعة خاصة .

الوحي في لسان الشرع : هو إعلام الله تعالى من اصطفاه من عباده ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر).[٦]

أنواع وطرق الوحي

حدد القرآن الكريم أنواعا ثلاثة للوحي بينها في قوله تعالى "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"(الشورى:٥١)

النوع الأول :

أن يلقـــي الله المعـــنى في قلب النبي مباشرة . ويكون ذلك اليقظة والمنام . وأشار إليه قوله تعالى " وَحْياً" ويكون ذلك على صور .

١-إلقـــاء الله المعنى في قلب من اصطفاه في اليقظة ويكون ذلك من غير واسطة ملك ، على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعا ، ولا يجد فيه شكا .[٧]

٢-إلقاء المعنى في قلب الرسول مناما ،كما حدث لسيدنا إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى " قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ" (الصافات:١٠٢)

وكمـــا حصل لسيدنا محمد ﷺ في مناسبات كثيرة . وكانت الرؤيا الصالحة أول مطالع الوحي في حـــياة الرســـول ﷺ فقد روى عن السيدة عائشة رضي الله عنها" أول ما بدء به رسول الله ﷺ من الوحي هي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح "[٨]

وبهذا يتضح لنا أن الرؤيا وحيا وجزءا من النبوة باعتبار ما يقترن بها من التيقن بأنها من عند الله عز وجل.

النوع الثاني : الكلام : وهو على نوعان :

١- التكليم مباشرة بلا واسطة ، كما حصل لسيدنا محمد ﷺليلة الإسراء والمعراج في الملكوت الأعلى ، إذ عرج به ﷺحتى بلغ درة المنتهى ، وكلمه ربه تعالى ، وفرض عليه الصلوات الخمس قال تعالى "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى... إلى قوله تعالى "فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) (لنجم:١١)

٢- الكلام من وراء حجاب كما حدث لسيدنا موسىعليه السلامبلا واسطة فلم يره موسى . قال تعالى) وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً)(النساء: من الآية١٦٤))

النوع الثالث : الكلام بواسطة الملك ويكون ذلك على أحوال ثلاثة :

١- أن يرى النبي ﷺالملك على صورته الحقيقية التي خلقها الله عليها ، فيوحي إلى الرسول ما شاء أن يوحيه . وقد وقع هذا للرسول ﷺمرتين كما جاء في سورة النجم : قال تعالى"ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى.فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) (لنجم:٩)

٢- أن يتمثل الملك في صورة بشر فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول ، كما رأى الرسول ﷺجبريل في صورة دحية الكلبي الصحابي الجليل ذي الهيئة الحسنة والصورة الجميلة .[9]

٣- أن لا يرى الملك عند الوحي لا في صورته مباشرة ولا في صورة غيره وإنما يسمع عند قدومه ومجيئه صوتا فيتعلم منه ، وهو موقن أن ما ألقي إليه من عند الله .

النوع الرابع :أن يلقى الملك في روع النبي وقلبه دون أن يراه ، كما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنهقال : قال رسول اللهﷺ" إن جبريل عليه السلام، ألقى في روعي أن أحد منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه ، فاتقوا الله وأجملو في الطلب ، فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله ، فإن الله لاينا ل فضله بمعصيته "[10]

موقف المستشرقين من عقيد الوحي والرد عليها :

نالت مسألة الوحي اهتماما كبيرا من المستشرقين سواء اليهود أو النصارى ، وحاولوا بشتى الوسائل والطرق الطعن في الإسلام من خلال هذا الأمر بمحاولة تفسير الوحي الذي نزل على سيدنا محمد ﷺ بشتى التفسيرات المادية والعقلانية . والوحي من الأمور الاعتقادية التي يسلم بها

المؤمنون جميعا على اختلاف مذاهبهم فلا يخضع لمناهج المستشرقين المتصفة بالمادية ° والتي لا تعترف بالغيبيات ، ولا نستطيع إثباتها عن طريق العقل والحواس وحدهما ولكن علينا الإيمان بها ، ولذلك كان من أول صفات المؤمنين كما جاء في قوله تعالى)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (البقرة:٣)

ومن أبرز هذه الشبهات زعمهم أن الوحي يشبه الصرع الذي يصيب الإنسان ، فكان النبي ﷺ حين يجيئه يصاب به فيعتريه احتقان فغطيط فغشيان كما يقول جوستاف لوبون (حضارة العرب) وكما جاء في الموسوعة البريطانية .

ويقول مونتجمري وات في وصفه لرسول الله ﷺ بأنه كان من الذين يتمتعون بما سماه "الخيال الخلاق " وحاول الرجوع لعلم النفس لشرح هذا المصطلح بإرجاعه إلى اللاشعور أو الوعي الجمعي وغيره من المصطلحات الغامضة التي تبعده عن تفسير الوحي التفسير المعقول .

وللرد على هذه الشبهة

نقول بأن الصرع – كما نعلم – مرض خلقي يصاب من ابتلوا به بنوبات ، يكون النسيان من أبرز سماتها وصفاتها ، وهذا كان بعيدا عن الرسول ﷺ .

ويقول محمد رشيد رضا بأن الذي يصاب بالصرع حقيقة يفقد وعيه فإذا أفاق لا يذكر من تلك الفترة شيئا ، ولكن الوحي الذي كان يجيء نبينا محمدﷺ لا يذهب حتى يكون قد وعى وحفظ ما أوحي إليه به ، ويضيف رشيد رضا بان المصاب بالصرع لايمكن أن يأتي بدين ورسالة إلى العالم ، ثم إن الوحي لم يكن دائما بالصورة التي تشبه الغيبوبة بل كان يأتي في الواقع كثيرا والرسول ﷺ في يقظة تامة ،ويلخص ساسي الحاج هذه القضية بقوله " إن الصرع يعطل الإدراك الإنساني وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس ، أما الوحي فهو سمو روحي اختص الله به أنبياءه ليلقي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغها للناس ، وقد يصل العلم إلى إدراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سننها وأسرارها بعد أجيال وقرون ، وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم ، ومع ذلك فتبقى حقائق يقينية يهتدي بها المؤمنون الصادقون "[11]

٢- الوحدانية: جاء في الموسوعة (ومن الغريب والعجيب حقا أنه ليس هنالك إشارة إلى وحدانية الخالق في الفصول الأولى من القرآن).

وقـــد جـــاء في غير الموسوعة – أيضا– مثل هذه الشبهة. فقد قال "بلاشير" (ولقد يجدر بالذكر أن نصوص هذه الفترة الأولى لم تسلط الأضواء على إثبات عقيدة أساسية في الإسلام، ألا وهـــي وحدانـــية الله، بل يبدو أن سورة النجم (٥-١٩) تحتوي على آثار تردد في شجب عبادة ثلاث من ربات المكيين، لكنما النص في وضعه الحالي ظل يحتمل تصحيحا تخمينيا، إلا أن الوحدانية الإلهية سرعان ما تثبت قاطعة وبدون تردد في سورة الإخلاص: (قل هو الله أحد). ولعل الهدف من هـــذه الإشـــارات كلها أن يثبتوا أن قضية التوحيد، إنما استفادها النبي ﷺ ممن اتصل بهم من أهل الكـــتاب الموجودين في الجزيرة العربية وعلى وجه الخصوص الموجود منهم في مكة آنذاك أو من الحنفاء أمثال أمية بن أبي الصلت وغيره.

الرد على هذه الشبهة:

إن هـــؤلاء وآمـــثالهم لقصر نظرهم ظنوا خطا أن قضية التوحيد لابد فيها من ذكر مادة الوحدانـــية بالتصريح في أول ما نزل من القرآن الكريم ، فخلصوا من ذلك إلى ما تميزه من نتائج تتفق مع رغبتهم ونياتهم السيئة، ولقد تصدى القرآن الكريم للرد عليهم، خصوصا وأن أول كلمة صـــدع بهـــا النبيﷺ كانت الدعوة إلى التوحيد، قال تعالى: (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)[١٢]

ونستطيع أن نفصل القول في الرد على هؤلاء فيما يلي:

أولاً: من المعلوم –بداهة– أن النبي محمدﷺ كان ينفر من عبادة الأصنام ومن تعدد الآلهة، فـــلم يثبت تاريخيا أنه سجد لصنم أو عظمه قبل تكليفه الرسالة، فمن باب أولى يكون ذلك أكثر وأشـــد بعـــد تكليفه الرسالة، إن الأصل الذي كان يشغله وحتى قبل بعثته إنما هو قضية التوحيد وكـــان يتعـــبد على هذا الأصل في غار حراء. فقد كان حائرا يبحث عن الحقيقة التي غفل عنها الغافلون آنذاك ، قال تعالى: (ووجدك ضالا فهدى) [١٣]

ثانـــياً: لقـــد أقـــر العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة بأن روعة أسلوب القرآن الكريم تســـتدعي الإعجاب من كل منصف لأن هذا الأسلوب لم يتعوده أحد من قبل. وهذا الأسلوب لم يكن على وتيرة واحدة، بل كان متنوعا حسب الحال والمقام، فمثلا إذا نظرنا إلى ما حرمه القرآن ، فإننا لا نجد أن صيغة التحريم تلازمه، فلم يقل: حرمت عليكم السرقة، أو الكتب، أو السخرية من الناس، أو اغتصاب أموالهم. ومع أن هذه الأمور لا يرتاب أحد في تحريمها، ، لكنه سلك طرقا

وأساليب متعددة تدل على هذا التحريم كصيغة النهي "لا تفعل" أو وصفه بوصف تنفر منه النفوس، أو بيان أن الله لا يحبه .. إلخ.

وكذلك يقال فيما أوجبه على الناس، فلم يكن عنوان الوجوب في كل هذه التشريعات. وعلى هذا الأساس جاء أمر الوحدانية.

فقضية الوحدانية إذن لا تحتاج إلى أن تذكر هذه الكلمة بمادتها ومشتقاتها، وإنما يمكن أن تذكر أساليب متعددة يفهمها كل أولئك الذين يستمعون إلى هذه الأساليب، ويكونون على معرفة بها.

وإذا وقفنا مع الآيات الأولى التي نزلت ، فإننا نجد في كل نص ما يثبت هذه الوحدانية بمضمونها، إن لم يكن بمادتها.

فالنص الأول (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(١٤)

والنص الثاني: (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)(١٥)

والنص الثالث (مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)(١٦)

والنص الرابع (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)(١٧)

كل هذه النصوص تعطي القارئ أو المستمع لأول وهلة انطباعاً عن طبيعة هذا الدين، بل تؤكد له جوهر هذه الرسالة. ولهذا نجد هذه العبارة تكاد تكون في كل نص (ربك) اسم الرب مضافا إلى النبيﷺ ومعنى هذا أنه رب واحد، وأهل مكة أدركوا هذه الحقيقة. وهم الذين كانت لهم آلهة كثيرة ونزيد هذه المسألة أيضاحا فنقول أنه يجمع الباحثون على أن سورة الفاتحة من أوائل السور نزولا ، بل يذهب بعضهم إلى أنها أول سورة نزلت، أي سورة كاملة، وهي تثبت الوحدانية في كل أية من آياتها إثباتا قاطعاً.

فالحمد لله وحده؛ لأنه رب العالمين، والعالم كل ما سوى الله مما هو علامة، ودليل على وجود الله سبحانه، فهو رب العالمين جميعا والعوالم كلها، أرضيها وسماويها، وهو وحده الذي يهب الرحمة، وهو وحده المتصرف بيوم الدين، أي الآخرة.

وفي قوله تعال: (إياك نعبد وإياك نستعين) حسم لكل ذي ريب؛ لأن معنى هذه الآية كما يفهمها العربي لأول مرة بطبيعته وفطرته، ويفهمها من جاء بعدهم بفطنته ودرسه، أي لا نعبد غيرك

ولا نستعين بسواك، فليست هذه الآية تثبت العبادة لله والاستعانة به فحسب، وإنما تنفي العبادة والاستعانة من غيره. وهذا الفهم جاء من خصائص الأسلوب العربي، وهو تقديم المفعول (إياك) على الفعلين (نعبد) و(نستعين).

إن قواعد النقد العربي والبلاغة التي تدرك بالفطرة عند العرب الذين نزل فيهم القرآن، وتحتاج إلى نوع معرفة عند الناس فيما بعد، تبين لنا هذه الحقيقة، وهي أن تقديم المفعول يدل على الاختصاص. فإذا قلت مثلا: أحب فن الرسم، فأنا هنا قد قدمت الفعل. ومعنى هذه العبارة أنني أحب الرسم، وليس معناها أنني لا أحب غيره، فقد أحب الرسم مع الشعر مع الفلسفة. ولكن حينما أقول: فن الرسم أحب، وأقدم المفعول ، فليس معنى هذا أنني أحب فن الرسم فحسب، كما جاء في العبارة الأولى . وإنما إضافة لهذا المعنى الأول، هناك معنى آخر. وهو أنني أخصه بالحب أكثر من غيره.

وهكذا قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) ولله المثل الأعلى. فلو قال (نعبدك ونستعين) لكان دالا على العبادة والاستعانة فحسب : دون أن يعرض لآلهة أخرى.

ولكن (إياك نعبد وإياك نستعين) فيها شئ زائد، وهو أننا لا نعبد إلا أنت ولا نستعين بغيرك. فأنت الواحد الذي تستحق العبادة. جدير أن يستعان بك، أليست هذه حجة ساطعة لإثبات الوحدانية؟ فكيف يقال : إن أمر الوحدانية إنما جاء متأخرا في القرآن، ثم كلمة (لا إله الله) ليس فيها مادة الوحدانية، ولكن أليس معناها ومضمونها الدعوة إلى الوحدانية. وهذه أول كلمة صدع بها النبي ﷺ كما تقول حقائق التاريخ.

وقد سجل القرآن الكريم هذا في قوله تعالى: (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ) (١٨)

والتهمة بالجنون تهمة قديمة، كانت منذ اللحظة التي دعا فيها النبي ﷺ قومه، ودليل ذلك سورة القلم (مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) (١٩) . فهم يجمعون على أنها من أول الآيات نزولا. وأرجح الأقوال أنها نزلت بعد آيات العلق والمدثر. هذا الجنون إذن ما كان إلا من أجل دعوتهم أن يتركوا آلهتهم ، ويتبعوا إله واحداً، أفيقال بعد ذلك إن دعوة التوحيد كانت متأخرة في القرآن الكريم؟؟؟! إن هذا لعجب عجاب.

ثالثاً: نسى هؤلاء أن دعوة التوحيد هي دعوة الرسل جميعا من لدن أدم إلى خاتم النبيين محمدﷺ فها هو القرآن الكريم يحدثنا عن كل واحد من الأنبياء والرسل السابقين بأنه كان يدعو قومه إلى عبادة الله الواحد. قال تعالى (ياقوم اعبدو الله ما لكم من إله غيره[٢٠] والنبي محمدﷺ جاء بمثل ما أتوا به ، قال تعالى: (قل ما كنت بدعا من الرسل)[٢١] ، وإن دعوة الأنبياء في هذا الأصل واحدة (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[٢٢].

ونحن نتساءل كيف تكون دعوة التوحيد في الرسالات السابقة- كما ذكر القرآن الكريم- مبكرة، وتكون دعوة التوحيد في الرسالة المحمدية متأخرة؟؟!!

رابعاً: إن أي سورة من السور الأولى تدعو إلى التوحيد بكل جزء من أجزائها، وليس كما قال "بلاشير" من أن أول سورة هي (قل هو الله أحد). فإن سورة الإخلاص لم تأت للحديث عن الوحدانية بادئ ذي بدء، وإنما جاءت – كما تقول الروايات- إجابة عن سؤال للنبيﷺ حينما سئل (صف لنا ربك) وهذا ما يدل عليه محتوى السورة. إذن سورة الإخلاص ليست هي أول سورة جاءت تقرر الوحدانية، فالوحدانية مقررة من قبل، ولكنها جاءت رداً على تساءل ، وتصحيحاً لتصور خاطئ.

خامساً: ينبغي أن نفرق بين أمرين: بين طبيعة التوحيد والدعوة إليه، وبين البراهين على الوحدانية. فأما قضية التوحيد والدعوة إليه فتلك قضية كانت معلومة منذ اليوم الأول، ولذلك قوبلت هذه الدعوة بالرفض ، وأما البراهين على الوحدانية فهذه يمكن أن يكون قد تأخر نزولها، إلى أن احتدم النزاع بين المؤمنين وخصومهم، فجاءت تلك البراهين مفحمة وملزمة مفحمة وملزمة لهؤلاء الخصوم بالحجج الدامغة. وبراهين التوحيد كثيرة في القرآن الكريم منها: قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[٢٣]. وقوله تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ)[٢٤] . وقوله تعالى:(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا..)[٢٥]

وبعد هذا البيان نكون قد رددنا على هذه الشبهة، ولم يعد هناك أي مجال للطعن في قضية الوحدانية وأنها لم تأت في أول ما نزل من القرآن الكريم[٢٦].

٣- قصة الغرانيق:

ومن تلك الشبه التي وردت في الموسوعة البريطانية قصة الغرانيق. فقد جاء في الموسوعة (وهنالك مصدر يقول إن محمدا اعترف بالسلطة النسبية لثلاثة آلهة هم: اللات ومناة والعزى،

ولكـــنه عاد وألغى ذلك في وقت لاحق). فهذه القضية تعرف بمسألة الغرانيق. وتتلخص في الزعم القائل بأن الرسولﷺ كان يقرأ سورة النجم عند الكعبة المشرفة، فلما بلغ إلى قوله سبحانه وتعالى (أفرأيـــتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى)[٢٧] قال بعد ذلك: (إنها لهي الغرانيق العلى، وإن شـــفاعتهن لـــترتجى) ففـــرح المشركون بهذا الوصف لهذه الأصنام الثلاثة اللات والعزى ومناة، ووصـــفها بالغرانـــيق العلى، وبأن شفاعتهن ترتجى، فلما بلغ آخر السورة، وهي أية فيها سجدة سجد، فسجد المؤمنون المشركون جميعا.

وهـــذه الرواية الكاذبة يجعلونها تفسيرا – كما يزعمون– لقوله سبحانه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَـــبْلِكَ مِـــنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِـــمُ اللَّـــهُ آيَاتِـــهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[٢٨] ، هذا مجمل لشبهة الغرانيق. وقد تصدى لها الأئمة والعلماء قديما وحديثا وبينوا فسادها وبطلانها سواء من جهة النقل أو من جهة العقل.

وإليك الرد على هذه الشبهة:

أما من ناحية النقل فإن كتب السنة المعتد بها لم ترو هذه القصة. ولا عبرة بما نقله البعض من الذين ينقلون القصص والأخبار الغربية دون أدنى تمحيص أو تثبت. وأما من ناحية العقل:

أولا: أن هذا لو صح لتمسك به المشركون أعداء الإسلام في ذلك الوقت، ولكان له ردة فعـــل سيئة عند بعض المسلمين، وكلنا يعلم نتيجة ما كان في حادثة الإسراء والمعراج، حيث ارتد بعض ضعاف الإيمان، وكذلك ما حدث حينما حولت القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام.

ثانـــيا: أنه لم يؤثر عن العرب قديما أنهم استعملوا لفظ (الغرانيق) وصفا لآلهتهم مما جعلنا نؤكد على أنها ملفقة فيما بعد.

ثالثا: إن ما قبل هذه السورة وما بعدها فيه موقف حازم من قضية الأصنام، ومن أنها تخلق مجردة من الحياة (أموات غير أحياء) فأي عاقل يمكن أن يصدق هذه الفرية التي ردت بحزم في جميع أي القرآن الكريم.

رابعـــا: إن شخصـــية النبي محمد ﷺ تتناقض مع هذه القصة تماما، لأن شخصيته كانت متوازنة كل التوازن، خاصة في قضايا الوحي.

وهــا هي الروايات الكثيرة تحدث أنه كانت تعرض عليه الحادثة من الحوادث، فلا يقطع فيها برأي حتى ينزل الوحي، وإذا حدث أن اجتهد في بعض هذه الحوادث كان الوحي ينزل عليه ليصحح له ويبين وجه الحق.

كما حدث ذلك في قصة (خولة بنت حكيم) وقد ظاهر منها زوجها، فجاءت تسأل النبي ﷺ وتجادلــه فيقول ﷺ ما أظنك إلا قد حرمت عليه، فنزل الوحي بالبشرى لخولة وزوجها ، قال تعــالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (٢٩)

خامســاً: إن القــول بأن لفظ الغرانيق إما آني كون النبيﷺ قد نطق بها بالفعل، وإما أن يكون الشيطان هو الذي نطق بها. هذا قول باطل ومردود، وكلا الاحتمالين باطل:

أمــا الأول: فلأن النبيﷺ نفسه يصرح في مواضع كثيرة من القرآن الكريم بأنه لا يملك لنفســه شــيئا، وبأنه لو شاء الله ما تلا شيئا من هذا القرآن. قال تعالى (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ) (٣٠) بل إن القرآن نفسه يقرر دون استحياء من النبيﷺ قال تعالى: (والله لا يستحي من الحق) (٣١).

وصرح بأن هذا القرآن إنما هو رحمة وفضل من الله تعالى، وأنهم يكادون يفتنونه عن بعض مــا أوحى إليه، ولكن الله يثبته، قال تعالى: (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) (٣٢) . بل يذهب القرآن الكريم إلى أكثر من هذا في قوله تعالى: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) (٣٣)

وأما الثاني: فهو احتمال أبعد ما يكون عن المنطق والواقع . حيث إن القرآن الكريم منزه وبعيد عن أن يحوم حوله شيطان. فقارئ القرآن يبدأ قراءته بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والشــياطين لا يســتطيعون ذلك أبدا، كما بين القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) (٣٤) . وإذا كان الأمر كذلك فكيف يتصور، بل كيف يصح أن يأتوا بشيء منه في حضرة النبيﷺ وهو يتلوه؟ يقيــنا إن شــياطين الجن لا يستطيعون ذلك، ومع ذلك فإن شياطين الإنس قد اختلقوه وافتروه.

والشـــياطين – كما هو معلوم – لا يستطيع أن يتمثل في صورة النبيﷺ، فكيف يمكن أن يحاكيه ويقلده في صوته.

وأخيرا نخلص إلى أن هذه الفرية لم تعرف إلا بعد عصر النبيﷺ، وأنها من وضع الزنادقة، وأنها منافية لعصمة الأنبياء[٣٥].

ومن افتراءاتهم على القرآن قولهم:

أعلن القرآن أنه مصدق لما بين يديه من الكتاب، ومع ذلك فإنه يخالف أسفار العهد القديم والجديد في مواضع شتى، فلا يكون إذن كلام الله .. إذ كيف يصدق ما سبقه من الكتب السماوية ويخالفها في كثير من الأمور؟؟

الرد على هذه الفرية الكاذبة...

يذكر الشيخ رحمة الله الهندي – رحمه الله– في كتابه القيم "إظهار الحق" ما خلاصته[٣٦] لا تضر مخالفة القرآن لتلك الأسفار في مواضع مختلفة، لأنه لم تثبت أسانيدها المتصلة إلى مصنفيها من ناحـــية، ولم يثبت أن كل سفر منها المهلى من ناحية أخرى، بل ثبت أنها مختلفة اختلافا معنويا في مواضـــع كـــثيرة ومملـــوءة بالأغلاط المبينة يقينا ومحرفة بأيدي العابثين والمضللين في أمور مختلفة. الاختلاف بين العهدين القديم والجديد وقع في مواضع كثيرة.. وعلى سبيل التمثيل نذكر ما يلي: الاخـــتلاف في نصوص التوراة: الفقرة التاسعة من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر صموئيل الثاني"وأتى بواب بعدد وحساب الشعب للملك وكان عدد بني إسرائيل ثماني مائة ألف رجل بطل، يضرب بالسيف ورحال يهوذا عددهم خمسمائة ألف رجل مقاتلة".

والفقرة الخامسة من الإصحاح الحادي والعشرين من السفر الأول من أخبار الأيام هكذا "ودفع إحصاء القوم إلى داود، وكان عدد بني إسرائيل ألف ومائة ألف رجل جاذب سيف، ويهودا أربعمائة ألف وسبعون ألف رجل مقاتلة" فبينهما اختلاف في عدد بني إسرائيل بمقدار ثلاثمائة ألف، وفي عدد يهوذا يقدر ثلاثين ألفا أيضا: الفقرة الثالثة عشرة من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر صـــموئيل "وأتى جاد إلى داود وأخبره قائلا: إما أن يكون سبع سنين جوعا لك في أرضك.. وفي الفقرة الثانية عشرة من الإصحاح الحادي والعشرين من السفر الأول من أخبار الأيام" أما ثلاث ســـنين جـــوع" . في الأول سبع سنين وفي الثاني ثلاث سنين، وقد أقر مفسروهم أن الأول غلط. أيضا: الفقرة السادسة والعشرين من الإصحاح الثامن من سفر الملوك الثاني هكذا: وقد كان أتى

عـــلى أخـــزيا اثنان وعشرين سنة إذ ملك.. والفقرة الثانية الإصحاح الثاني والعشرين من السفر الثاني من أخبار الأيام "ابن اثنين وأربعين سنة كان أخزيا" فيهما كذلك اختلاف والثاني غلط كما أقر مفسروهم ذلك.

التدليل من الإنجيل على الاختلاف

ذكر مرقص في الإصحاح الحادي عشر أن مباحثة اليهود والمسيح كانت اليوم الثالث من وصـــوله إلى أورشـــليم..وكتـــب متى في الإصحاح الحادي والعشرين أنها كانت في اليوم الثاني، فأحدهما غلط في الفقرة السابعة عشرة من الإصحاح الأول من أنجيل متى ما نصه:"فجميع الأجيال مـــن إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلا، ومن داود إلى سبى بابل أربعة عشر جيلا، ومن سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلا" من هذا النص يعلم أن نسب المسيح يشتمل على ثلاثة أقسام، وكل قسم منها مشتمل على أربعة عشر جيلا وهو غلط صريح، لأن القسم الأول يتم على داود،وإن كـــان داود عليه السلام داخـــلا في هذا القسم يكون خارجا من القسم الثاني لا محالة، ويبتدأ الثاني من ســـليمان ويتم على يكتيا، إذا دخل يكتيا في هذا القسم كان خارجاً من القسم الثالث، ويبتدئ القسم الثالث من شألنتيل لا محالة ويتم على المسيح، وفي هذا لا يوجد إلا ثلاثة عشر جيلا فكيف لا يخالف القرآن كتبا فيها من الاختلافات والأغلاط والتحريفات ما يجعلها غير قادرة على إعطاء الحقائق للناس، ليبين الحق والصواب والحكم الفصل في كل ما يحتاج فيه الناس إلى القول الفصل، مقرا بأن أصل هذه الكتب كان من عند الله فعبث بها العابثون، واقتحم جلال قدسها المقتحمون، فزيفوا وضللوا حتى ظهر الحق المبين..

من شبههم الواهية قولهم: إن في القرآن مضامين قبيحة – قبحهم الله– تدل على أنه ليس كلام الله، من هذه المضامين أن الهداية والإضلال من عند الله لا من عند غيره، ومنها أن في الجنة أنهـــارا وأشجارا وحورا وقصورا وطعاماً وشرابا، إلى آخر أنواع النعيم الجسماني الذي يستمتع به الناس في الحياة الدنيا.

ورداً عـــلى هذا الافتراء نقول: إن الحكم على كون الهداية والإضلال من عند الله لا من عند غيره من المضامين القبيحة التي اشتمل عليها القرآن هو حكم المتعصبين الجاهلية.. وإلا فإن ما قـــالوه عن القرآن في هذا الأمر كان ينبغي أن يقولوه عن التوارة والإنجيل لاشتمالهما على نفس الأمر أيضا.

جـــاء في سفر الخروج: "ثم قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون فإني أغلظت قلبه وقلوب عبيده لكي أضع آياتي هذه بينهم"(٣٧)

وفي الفقـــرة الثامـــنة من الإصحاح الحادي عشر من الرسالة الروحية كما هو مكتوب أعطاهم الله روح ثبات وعيونا حتى لا يبصروا وآذانا حتى لا يسمعوا إلى اليوم".

وفي الفقرة التاسعة والثلاثين من الإصحاح الثاني عشر من إنجيل يوحنا "لهذا لم يقدروا أن يؤمنو لأن أشعياء قال أيضا: قد أعمى عيونهم وأغلظ قلوبهم لئلا يبصروا بعيونهم ويشعروا بقلوبهم ويـــرجعوا فاشـــفيهم". فهل يخرج هذا في جملته عن قول الله تعالى (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (٣٨).

فـــلم يحكموا على التوراة والإنجيل وقد اشتملا على هذه المضامين القبيحة – في رأيهم– وهو كون الهداية والإضلال من عند الله لا من عند غيره.. بينما حكموا على القرآن به؟ أليس هذا هو التعصب الأعمى؟ ونكران الحق والجهل؟.. سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم، ثم إن القرآن الذي بـــين أن الهدايـــة والإضلال من عند الله تعالى. بين في الوقت نفسه أنه وضح للخلق سبيل الهداية ليتـــبعوا وســـبل الضـــلال ليتجنبوا (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (٣٩) ، (وهديناه النجدين) (٤٠).. فماذا بعد الحق إلا الضلال..

أمـــا قولهم بأن نعيم الجنة جسماني، وأن هذا النعيم يستمتع به الناس في حياتهم الدنيا، لا يجرؤ عليه إلا محترف الكذب والافتراء، لماذا؟؟

أولاً: إن الجـــنة وما فيها غيب مطلق ولم يطلع عليه أحد، ولا مدخل للعقل أبدا في هذا الأمـــر.. فكيف يتصور أن يصف أحد الجنة ولم يرها بعد، والقرآن الكريم أخبر بأن في الجنة نعيم الـــروح والجسد ونعيم الروح أفضل وأعظم، قال الله تعالى(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (٤١). فقوله سبحانه (ورضوان من الله أكبر) يدل على أن رضوان الله أكبر منزلة مـــن كـــل ما سلف ذكره في الآية الكريمة.. ورضوان الله هو نعيم الروح وتمتعها وعلى هذا فإن أفضل ما يعطي في الجنة المتعة الروحية.

هـــذه بعض شبه المغرضين الذين في قلوبهم مرض وعميت بصائرهم عن إدراك الحق مع نصـــاعته وقدوة برهانه وصدق حجته، لكن أني لهم أن ينالوا من القرآن العظيم (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ

الْعَـالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [٤٢].

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [٤٣].

(لَـوْ أَنْزَلْـنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) [٤٤] إن الذين يسـتمعون إلى القـرآن العظيم ترق قلوبهم وتذرف عيونهم، وتهدأ نفوسهم. لأنه حق لا ريب فيه وصدق لا شبه فيه. وحسبنا موقف النجاشي – ملك الحبشة– حين استمع إلى آيات منه من جعفر بن طالب رضي الله عنهما فبكى حتى أخضلت لحيته وأعلنها مدوية إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.

وصـدق الله العظيم (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [٤٥] .

وما يؤكد صدق القرآن وأهميته ما أخبر به من أنباء الغيب (ذلك مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَـيْكَ) [٤٦]. وشهادات غير المسلمين على هذا الحق – ما أكثرها–[٤٧] . وصدق الله العظيم (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [٤٨]

الهوامش:

(١) لسان العرب – محمد بن منظور المصري – مادة (وحي)

(٢) سورة الصف، آية ٨.

(٣)روح المعاني جـ٢٧صـ٥٢ طبعة المنيرة .

(٤) التفسير الكبير للرازي جـ١١ص١٠٨

(٥) مناهل العرفان –للزرقاوى جـ١ ص٦٢

(٦) سورة ص، آية (٤–٥).

(٧) سورة الضحى، آية ٧.

(٨) سورة العلق، الآيات ١ – ٥.

(٩) سورة المدثر، أية ١–٣.

(١٠) سورة القلم، آية ٢.

(١١) سورة الضحى، آية ٣.

(١٢) سورة الصافات، اية ٣٥-٣٧.

(١٣) سورة القلم، أية ٢.

(١٤) سورة الأعراف، آية ٦٥.

(١٥) سورة الأحقاف، آية ٩.

(١٦) سورة الشورى، آية ١٣.

(١٧) سورة الشورى، آية (١١)

(١٨) سورة المؤمنون، أية (٩١)

(١٩) سورة الأنبياء، آية (٢٢).

(٢٠) أنظر قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، د. فضل حسن عباس، ص١١٨:١١٢، ط١، دار الفتح ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، عمان ، الأردن.

(٢١) سورة النجم، آية (١٩،٢٠).

(٢٢) سورة الحج، آية (٥٢)

(٢٣) سورة المجادلة، أية (١).

(٢٤) سورة يونس، آية (١٦)

(٢٥) سورة الأحزاب، آية (٥٣).

(٢٦) سورة الإسراء، آية (٧٢-٧٤)

(٢٧) سورة الحاقة، آية (٤٤-٤٧)

(٢٨) سورة الشعراء، آية (٢١٠-٢١٢)

(٢٩) أنظر المصدر السابق، ص١١٨: ١٢١

(٣٠) سورة البقرة، آية ٧.

(٣١) سورة الإنسان، آية٣.

(٣٢) سورة البلد، آية، ١٠.

(٣٣) سورة التوبة ، آية ٧٢

(٣٤) سورة الشعراء، آية ١٩٢-١٩٥

(٣٥) سورة فصلت، آية ٤١-٤٢.

(٣٦) سورة الحشر، آية ٢١

(٣٧) سورة المائدة، آية ٨٣

(٣٨) سورة يوسف، آية ١٠٢

(٣٩) هذه الشهادات ذكرها الشيخ يوف البروجي في كتابه الجوانب المنيف" بالتفصيل

(٤٠) سورة الحجر، آية ٩

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٤٣٥٩